

أربعاء أيوب.. احتفاء بيروتي بالصبر والاحتمال

زهير دبس

حظي شهر نيسان (ابريل) في روزنامة الشعوب القديمة باهتمام له أسبابه ودلالاته، إذ ارتبط بفكرة الولادة وتجدد الحياة والخلود، منذ اليونانيين والرومانيين والسومريين والبابليين وحتى الفينيقيين، ولا زال هذا الشهر حتى عصرنا الراهن مساحة لاحتفالات الشعوب من بينها شم النسيم الذي يحتفل به المصريون، والنوروز الذي يحتفل به الأكراد والفرس، والفصح الذي تحتفل به الطوائف المسيحية حول العالم.

يصادف في الشهر المذكور أيضاً "أربعاء أيوب"، أحد الأعياد التراثية - الشعبية، الذي كان أهل بيروت يحتفلون به، في آخر أربعاء من شهر نيسان من كل عام، وتقوم فكرة العيد عن حياة النبي أيوب، وهو رجل مؤمن متعبّد وفاعل خير. ومما جاء في أعمال الذاكرة أن عين الحسد أصابت الرجل فابتلي بداء جلدي خطير لازمه سبع سنوات بقي خلالها صابراً على أوجاعه. وبناء على نصيحة أحدهم، قدّم النبي أيوب من فلسطين إلى لبنان بهدف العلاج، فقصّد شاطئ الرملة البيضاء وراح يسبح يومياً في مياه البحر ويعيد الكرة لسبع مرات حتى شفي من بلاته.

في الذاكرة الشعبية أن خديجة العيتاني "جب المصيطبة" كانت هي المؤقتة الشعبية لهذا العيد، وكانت تلجأ إلى راعي الكنيسة الأرثوذكسية في مزرعة المصيطبة لتحدد يوم الاحتفال، وبعد أن تتأكد من الموعد كانت بدورها تخبر صديقاتها في مناطق مختلفة من بيروت حتى يتولين هنّ أيضاً نشر الخبر من بينهم أم زكور وجمول في رأس بيروت وغيرهن.



احتفالات البيارثة في ذكرى أربعة أيوب على شاطئ الرملة البيضاء ومحيطها في العهد العثماني

التحضيرات للعيد

التحضيرات لاحتفالات "أربعتيوب" كما يلفظها البيروتيون، كانت تبدأ قبل أسبوع من العيد، كان شباب الأحياء يتوجهون إلى منطقة الدالية وشوران في الرملة البيضاء ويقومون بتنظيف رمال الشاطئ من النفايات ثم ينصبون الخيم والعرازيل وفقاً للمناطق والأحياء.

عشية العيد كان أهل بيروت يعدون حلوى المفتقة التي أكثر ما ترتبط بالعيد المذكور، وتتألف من الأرز والعقدة الصفرا والطحينة والسكر والمياه، ويتطلب إنجازها جهداً كبيراً إذ يتناوب على تحريكها عدد من النسوة، كما يستغرق نضوجها وقتاً طويلاً يصل حتى ست ساعات، وما أن "يفقش السارج" حتى تكون المفتقة جاهزة، فيبادر الحاضرون إلى البسملة والصلاة على النبي، تسكب بعدها في صحن وتوزع على الأهل والجيران ويحمل منها إلى مكان الاحتفال.



صبيحة يوم العيد، كانت التظاهرات الحاشدة تنطلق من كل أحياء بيروت باتجاه الرملة البيضاء على الطنابر أو سيراً على الأقدام، على وقع قرع الطبول والأغاني، وكان يرأس هذه التظاهرات نساء الأحياء اللواتي كنَّ يشرفنَّ على تنظيمها، خدرج عيتاني في طليعة تظاهرة منطقة المصيطبة، فيما جمول في طليعة تظاهرة راس بيروت، وأم زكور على رأس تظاهرات طريق الجديدة، وعندما تصل التظاهرات إلى الشاطئ كانت العائلات تفرش الأرض بالحصر وتغطيها من الداخل بالشراشف البيضاء للوقاية من حرارة الشمس، ثم تصف الكراسي والطاولات وتوضع عليها صحنون المفتقة وطناجر الطعام. وما أن يحل المساء حتى كانت أصوات الأغاني تصدح في المكان.



المفتقة البيروتية

خارج الخيم كان بائعو الترمس والكعك واللوز والفسنق السوداني ينتشرون على رمال الشاطئ، فيما النساء ينهمن في إعداد النرجيلة والشاي والقهوة لزوم الجلسات التي كانت لا تخلو من "النميمة" و"تركيب المفتقة"، ومما تذكره أعمال الذاكرة عما كان يدور بين النساء:

- "ولي عا قامتها مرت القباقيبي كل خلفتها بنات"
"دخلك إنو حماتك شو عاملي معها أني؟! كراتي تكرتها صحيح"
"وئي، شو عتبة بيتنا واطية حتى خديجة بنت حماك ما بتجي لعندي؟!"
"يسلمو إيديكي يا فطوم على هل نفس الأركيلي المنظوم".
"بحياتك يا نفوس خدي هالقباقب ودقي عامود الخيمة شوي، شكلو ألوا".

الطائرات الورقية

في أربعاء أيوب كانت الطائرات الورقية التي يطلقها الأولاد والشباب تملأ سماء الرملة البيضاء، واللعبة مثابة منافسة حامية بينهم، كما كانت "شركة" إحدى الطيارات بأخرى تحتّم على المغلوب أن يفي ما وُعد به أصدقائه في بداية اللعبة كشراء الحلوى أو المرطبات أو القيام بأعمال رياضية إثباتاً لقوته وجلادته، مثل السير على الرمال الساخنة، أو الركض لمسافات طويلة في وقت قصير. وإذا ما حصل سوء تفاهم بين الأولاد على خلفية اللعب بالطائرات، كانت الحاجة جمول تتكفل بإصلاح الحال بينهم، ومما تحفظه الذاكرة عما كانت تقوله: "تعا ولي خالتي صالح ابن جيرانك عبدو وبوسو".

مع حلول العصر كان الرجال يأتون من أعمالهم، فتتناول العائلات طعام الغداء يليه تناول حلوى المفتقة، وبعد القيلولة كان الرجال ينصرفون الى لعب الورق والداما وغيرها من انواع التسلية التي كانت كثيرة ومتنوعة في هذا العيد.

إيفاء النذور

أربعاء أيوب هو مناسبة لإيفاء النذور ومعظمها يتماها مع صبر النبي أيوب على مرضه، فمن النساء من نذرت لأجل أن ترزق بطفل، ومنهن لأجل رد غائب، ومنهن لأجل شفاء مريض، ومنهن لأجل أن ترزق بعريس، فكنّ يلجأن إلى مياه البحر ويغطسن سبع مرات، كما كانت النساء ترمي شعر المولود في مياه البحر لإزالة مفعول السحر عنه، ومنهنّ كنّ يجمعن الحشائش وينقعنها في الماء ثم يغسلن بها وجوههنّ وفقاً للمعتقدات أنّ النبي أيوب فرك جسمه بعشبة الرعرع التي كانت تنبت في المكان.



رمزية الصبر والتضحية

يكتنّز أربعاء أيوب الكثير من الرموز والشعائر التي تصنف من ضمن التراث اللامادي، وتتداخل بين الشعبي والديني، ومعظمها يرمز إلى الصبر والتضحية وتحمل الألام كما هو حال النبي أيوب الذي صبر على مرضه وآلامه فمنحه الله شفاء منها. ابتداء من المفتقة التي يستدعي إنجازها صبراً ووقتاً طويلاً وجهداً، إلى الغطس في مياه البحر وفرك الجسم بالأعشاب وغيرها من المعتقدات التي كان يمارسها الناس وهم فرحين بهذا العيد الذي كان يجمعهم أهل وأصدقاء وأصحاب في جو من الإلفة والمحبة واللهو.

للعيد المذكور أيضاً حصة من المواويل التي كانت تحض على الصبر والتحمل من بينها ما ذكره أحد مريدي مقّي بيروت وقاضيه الشيخ أحمد الأغر الذي أسمعته شطرين من موال جاء فيه:
الصبر يا مبتلي أحلى من الشكوات،

كم عليل تعافى والمعافى مات

فكان جواب الشيخ الأغر:
واخضع لحكم الهوى واغتنم اللذات
واقنع بما قل يأتيك الفرح حالاً
من عندي ربي ولا تحزن على ما فات

لعقود طويلة ظل أهل بيروت يحتفلون بأربعاء أيوب على شاطئ الرملة البيضاء، قبل أن تتوقف هذه الاحتفالات عقب أحداث ثورة 1958، وما تلاها، وقد عادت بعد انتهاء الحرب الأهلية، عبر عدد من الجمعيات، ثم ما لبثت أن توقفت.

المراجع:

- من ذاكرة سعد الدين مخللاتي
- عبد اللطيف فاخوري
- زياد سامي عيتاني
- تراث بيروت